

من روائع

أبي الحسن الندوي

فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

إعداد

محمد على محمد إمام

دار الكتب والوثائق القومية

إمام / محمد علي محمد

من روائع أبي الحسن الندوي

في الدعوة إلى الله

إعداد /

محمد علي محمد إمام ... الدقهلية

الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م

عدد الصفحات (٥٥)

المقاس (١٢ سم × ١٦ سم)

(١) الدعوة إلى الله .

رقم الإيداع

١٥٣٥

تاريخ الإيداع

سنة ٢٠٠٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله الذى لا ينبغى الحمدُ إلا له وأسأله سبحانه وتعالى أن يصلى ويسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وبعد .. إخوانى وأحبائى فى الله عز وجل يسعدنى أن أقدم لكم هذه الرسالة العظيمة التى ألقاها شيخنا أبو الحسن الندوي فى إحدى اجتماعات التبليغ والدعوة وهى رسالة عظيمة النفع قد تكلم فيها عن الدعوة إلى الله عز وجل منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وولادة الأمة المحمدية وبعثتها ، وبين فيها كيف كان حال الصحابة رضى الله عنهم وهم نواة هذه الأمة حيث كانوا ميداناً عملياً لتطبيق هذا الدين ..؟

وكيف شغلوا أنفسهم بنصرة هذا الدين العظيم ..؟! وكيف عملوا على ازدهار الإسلام وانتشاره ..؟! وكيف كانت نصرة الله عز وجل معهم ..؟! ولما تركت الأمة حياة العبودية والدعوة إليها صار حالها إلى ما وصلت إليه حتى قبض الله

عز وجل أحد علماء الهند وهو الشيخ إلياس رحمه الله حيث قام بإحياء جهد الدعوة إلى الله وأخذ يرسل الجماعات شرقاً وغرباً .. وقد قام العجم بهذا الجهد خير قيام .. وهم يتحفون العالم بهذه الدعوة المباركة وخاصة العرب وهم أحفاد الصحابة رضى الله عنهم ويقولون لهم هذه بضاعتكم ردت إليكم ، والحمد لله لاقت هذه الدعوة - المباركة - القبول فى كثير من دول العالم وبخاصة الدول العربية .. وهذا ما نقرأه فى هذه الرسالة المباركة التى نسأل الله عز وجل أن ينفعنا بها والعمل بما فيها ..

وقد كنت أودعتها كتابى (كلمات مضيئة فى الدعوة إلى الله عز وجل) ولقد أشار إلى بعض المحبين أن أفرد لها فى رسالة مستقلة حتى يعم بها النفع للجميع فاستجبت لذلك ..

أخوكم

محمد على محمد إمام

الدعوة إلى الله

.. من البداية إلى النهاية..

أيها السادة المسلمون أنتم شامة بين الناس لا لأنكم
تمتازون عن زملائكم في الشارة واللباس ، بل لأنكم تمثلون
تلك الأمة العظيمة التي كانت ولا تزال شامة بين الأمم .

*** حال العالم قبل ظهور الأمة المحمدية :**

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرناً سائراً سيره الطبيعي لا
ينكر من أمره شئ ، فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان ،
وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت
الحرف البشرية ووجوه المعاش فى ازدهار وانتشار ، كانت
الزراعة ، و كانت التجارة ، وكانت الصناعة ، فبينما كانت
سكة الفلاح فى شغل ونشاط ، كانت القوافل التجارية غادية
رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونة بالمتاجر
والبضائع وكان الصناعون مكبين على أعمالهم ، وكانت
الحكومات والإمارات والدول غنية بأموالها ورجالها لكل وظيفة
رجل كفؤ بل رجال أكفاء وكان على وجه الأرض من كل نوع

من البشر وكل لون من الحياة وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى في الحياة الإنسانية المادية عوزاً وفراغ ولم تكن في المدنية وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد ، وكانت كأس الحياة مترعة فائضة لا تطلب المزيد .

*** ظهور الأمة المحمدية :-**

في هذه الحال ظهرت أمة في جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة وهي تتساءل : أي داع إلى ظهور أمة جديدة والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة وما شغل هذه الأمة الحديثة وما مهمتها في العالم ..!؟

*** هل بعثت الأمة للزراعة ؟**

إذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للزراعة وعمارة الأرض فقد كان في فلاحى الطائف وأكارى مدينة يثرب ، وزراع وادى الفرات والنيل وربوع كنا وجمنا غنى عن أمة زراعية جديدة فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبناً وعسلاً ، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط فلماذا لم يبعثوا في العراق والشام وفي مصر والهند مثلاً وهي

بلاد مخصبة زراعية ولماذا كان مبعثهم في وادٍ غير ذي زرع ؟

*** وهل بعثت الأمة للتجارة ؟**

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للتجارة فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشام وفي أقباط مصر وتجار السند كفاية ، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم ، وإذا كانوا قد بعثوا ليشغلوا بالتجارة حقاً ، فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية وبالقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

*** وهل بعثت الأمة للصناعة ؟**

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للصناعة وأعمال اليد فقد كان في قيون البلاد المتمدنة وأصحاب الصنائع والحرف - وإنهم لكثير - غنى وكفاية !!..

*** وهل بعثت الأمة لتنضم إلى الحكومات ؟**

وإذا كانت هذه الأمة بعثت لتنضم إلى الحكومات الرومية والإيرانية وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنى وكفاية في الإدارة ويزاحمون الأجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

*** وهل بعثت الأمة للتوسع في الشهوات والملذات ؟**

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت لعيش هنيئ ، ومطعم شهى ، ومشرب مرئ ، وملبس رضى ومسكن بهي لا لشئ آخر ، وإنما مناها وهمها أن تلقى لبوساً ومطعماً لم تكن بدعاً من الأمم ، وكانت منافسة لنا فحق لنا أن نقاتلها ونزودها عن مناهلنا وقد ضاقت بنا مواردنا فكيف تسع أمة جديدة ؟

*** وهل تريد ملكاً ؟**

وإذا كانت هذه الأمة إنما تحاول ملكاً أو تريد أن تؤسس دولة فيجب أن تصرح بذلك ولا تتظاهر بالدين وتتخذ لذلك طريق الملوك والفاطحين .

وإن الطريق إلى كل ذلك .. من زراعة وتجارة وصناعة ووظيفة وحياء بذخ وترف وملك وشرف غير الطريق التى سلكتها هذه الأمة الجديدة التى سفهت أحلامنا وعابت آلهتنا ونعت على عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ودعت إلى دين جديد وسارت فى سبيل ذلك فى شوكة وقتاد وجاهدت فى غير جهاد ، فقد كان الطريق إلى كل ذلك مسلوكة معبدة قد سلكتها الأمم من قبل .

هذا يا سادتي ما أظنه قد تناجى به ضمير الإنسان الحي في فجر الإسلام ، ولا ألومه ، ولا أستغرب هذا السؤال ، فإن هذا السؤال طبيعي ينبغي أن يهجس في قلب الإنسان وينطق به اللسان عند كل ناشئة ، فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ..؟

ما هو الجواب ..؟ إذا كان الجواب في الإثبات وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة لشيء مما ذكرنا ، ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة إلى الأمم كانت هذه الأمة حقاً من فضول الأمم ومن المتطفلين على مائدة العالم ..!!

ولكن لم يكن مبعثها لهذا ولا ذلك ، والأمم والأشخاص لا يبعثون لشيء من هذا وإنما هي من طبائع البشر لا تحتاج إلى نبوة النبي وبعثة أمة وجهاد طويل وزلزال عالمي لم يسبق في التاريخ ، زلزال في المعتقد والأخلاق والمجتمع والميول والنزعات وفي نظام الفكر ومنهاج الحياة .

*** لقد بعثت الأمة لغرض سام جداً .**

لقد كان مبعثها لغرض سامٍ جداً ، لمهمة غريبة طال عهد الإنسانية بها وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها وذلك ما خاطب به الله ﷻ هذه الأمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) فبِه على أن هذه الأمة ليست نابئة نبتت في الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية بل أنها أمة أخرجت ولأمر ما أخرجت ، وإنما لم تظهر لمصلحتها فقط كسائر الأمم بل أنها أخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به هذه الأمة في التاريخ فما من أمة إلا وهي تسعى لأغراضها كأنما خلقت لها ، وهي خير أمة أخرجت للناس وذلك يرجع إلى شغلها ومهمتها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

*** في أي مكان ظهرت هذه الأمة ؟**

(١) سورة آل عمران – الآية ١١٠ .

ظهرت نواة هذه الأمة في مكة في قلب جزيرة العرب .

*** مجابهة قريش لها :**

فقام العقلاء من قريش وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد –
ونثروا كنانتهم وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها
وألفوها ووزنوها في ميزان الإنسان الذي طالما وزنوا فيه
أصحاب الطموح فوجدهم خفيفة الوزن طائشة الكفة وذهبوا
إلى إمام الدعوة الإسلامية وأول المسلمين في العالم - ﷺ -
فقال قائلهم " إنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ فرقت به
جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت
به من مضى من آباءهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر
فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

قال فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا
الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن
كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك
، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

استمع رسول الله ﷺ لكل ذلك في هدوءٍ وتأنٍ ، ثم رفضه في غير شك ولا تأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول ﷺ بل كان على هذه الأمة التي كان يمثلها ويقودها ، ولم يكن رفض رسول الله ﷺ لما عرضت قريش رفضاً عن نفسه الكريمة فقط بل كان رفضاً عن أمته إلى آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهذه المحاورة ويئست من مساومة هذه الأمة ولم تعد تعرض على الرسول ﷺ مباشرة وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضت من قبل وقطعت منها أملها .

وكان بعد ذلك صراع مستمر ونزاع طويل ولم يكن نزاعاً في أغراض المادة ، وشهوات البطن والاستئثار بموارد الرزق والتغلب على الأسواق بل كان نزاعاً بين الإسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين نزاعاً بين حياة العبودية والانقياد لله ﷻ ولرسوله ﷺ ، وبين الحياة الحرة المطلقة التي لا تعرف قيوداً ولا تخشى معاداً ولا حساباً .

*** غزوة بدر وبيان مهمة الأمة :**

وكان في نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبي الكريم ﷺ إلى ساحة القتال جيشاً لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والجيش المنافس فيه ألف ، وكان النبي ﷺ يعلم يقيناً أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم المادية لكانت النتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوى كثير العدد .

فزع الرسول الكريم ﷺ إلى الله ﷻ في إنابة نبي وإلحاح عبد ودعاء مضطر وشفع لهذه العصابة في كلمات صريحة واضحة نيرة خالدة هي خير تعريف لهذه الأمة وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له .

لم يقل رسول الله ﷺ لو هلكت هذه العصابة وكانت فريسة للعدو أقفرت المدينة وأوحشت أسواقها وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة أو تعطل شغل من أشغال الحياة أو وقفت إدارة الحكومات ، لم يقل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك لأن شيئاً

منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال في غنى عنهم .

ولكن الرسول الكريم ﷺ ذكر شيئاً بعث المسلمون لأجله وقام بالمسلمين وحدهم فقال " اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد .. "

*** شرط بقاء الأمة :**

أجاب الله ﷻ دعاء النبي الكريم ﷺ وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون بل كانوا أشد جريمة وأقل قيمة من الأمم الأخرى إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم وكان كما أخبر الله

﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِرِزْمًا ﴾ (١) .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط وبنوا بهذا العهد وتذكروا أنهم إنما نُصروا على عدوهم ، وقد كاد يأتى عليهم ويستأصلهم فى ساحة بدر ، وتركوا على ظهر الأرض لأن عبادة الله ﷻ منوطة بهم على أرض الله ﷻ .

بهذه الرسالة انبثوا فى العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة والأمم ، وفى سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله وحاملوا راية الإسلام فى العالم .

*** ربعي بن عامر رضي الله عنه يبين لرستم قائد الفرس مقصد بعثة الأمة :**

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة ، والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعي بثياب

(١) سورة الفرقان - الآية ٧٧ .

صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضه على رأسه فقالوا له ضع سلاحك ، فقال إني لم آتكم وإنما جئتم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها فقالوا له ما جاء بكم ؟ فقال الله إبتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله .. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبي قاتلناه أبداً حتى نفى إلى موعود الله ﷺ ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال الجنة لمن مات على قتال من أبي والظفر لمن بقى ..!! (١)

* عناب الله لمن تلكأ عن المهمة :

أباح الله ﷺ للمسلمين الطيبات وفسح لهم في طرق الكسب ووجوه المعاش ولم يضيق عليهم في ذلك فقال ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ

(١) البداية والنهاية - ابن كثير .

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢﴾ وقال ﷺ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (١) ولكن الله ﷻ لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة بل خلقهم للسعى للآخرة وخلق أسباب الحياة لهم قال النبي الكريم ﷺ " إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة " وجعل الحياة وأسبابها خاضعة لمهمتهم التي بعثوا لأجلها فإذا زاحمتهم فى سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها رفضوها وإذا تلكأ المسلمون فى ذلك عاتبهم الله ﷻ عتاباً شديداً وقال ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ

(٢) سورة الأعراف - الآية ٣٢ .

(١) سورة الجمعة - الآية ١٠ .

اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢﴾ .

أراد الأنصار ﷺ أن يفرغوا لإصلاح أموالهم لأيام اكتفاء بأنصار الإسلام فعاتبهم الله ﷻ على ذلك وأنزل ﴿ وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١) .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري ﷺ .. إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية (٢) ولكن مع الأسف الشديد قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمة الجاهلية وسعوا ورائها وعقدوا حياتهم بها ، فإذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقب عالٍ لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمة جاهلية ، سعى وراء المادة في غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر في غير طاعة ، وعمل في غير نية

(٢) سورة التوبة - الآية ٢٤ .

(١) سورة البقرة - الآية ١٩٥ .

(٢) واه أبو داود ، انظر حياة الصحابة - ١ / ٤٥٤ .

، تجارة فى لهو عن ذكر الله وحرفة فى جهل عن دين الله ﷻ ،
، ووظيفة فى الإخلاص لغير الله وحكومة فى مشاققة حكم الله
، شغل فى ضلالة ، وقعود فى بطالة ..!!

* حال الأمة اليوم :

هل إذا أطلعتكم يا سادتى على بلاد إسلامية ورأيتم هذه
الأمة فى غدواتها وروحاتها إلى الأسواق والإدارات ومصالح
الحكومة عرفتم أنها أمة خلقت لشيء آخر ، وبُعِثت لغرض
آخر أسمى من هذه الأغراض التى يسعى لها الكافر والمؤمن
؟

* حجة ظاهرة على المسلمين :

إن هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهلية
على المسلمين فلو نطقوا لقالوا ما ذنبنا أيها المسلمون إذ
عرضنا على نبيكم المال والسيادة والملك فأبى ورفض كل ذلك
ألا نراكم تسعون وراء الذى رفضه نبيكم كأنما خلقتم لأجله ،
أما آديتم نبيكم بقبول ما رفضه عنه وعنكم ؟!

وإذا كنتم تسعون لمال أو جاه أو شرف أو حكم على
قطعة أرض فلماذا تظاهرتم بالدين وأقمتم وأقعدتم الدنيا لأجله
وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا فى غنى عن هذه
الحروب الطويلة التى أيتمت البنين وأيئمت النساء وأجلت
الناس عن الأوطان !

أعيدوا إلينا إذاً تلك الدماء التى أريقتم فى ساحة بدر
وأحد وحنين وخيبر واليرموك والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك
النفوس التى قتلت فى سبيل الدين !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض لنا أحد من أخلافهم الأحياء
وقال ما غنائكم أيها المسلمون لقد سهتمونا فى أسباب
الحياة وخلفتكم لنا فوق ذلك مشاكل كثيرة فى الحياة السياسية
والاجتماعية ، ولا نراكم تسدون عوزاً وتصلحون خللاً أو
تلمون شعناً أو تقيمون زيغاً فى الحياة !!..

عفواً أيها السادة وسماحاً أيها الكرام فقد طال العتاب
وقديماً قال الشاعر العربى " وفى العتاب حياة بين أقوام " .

*** لماذا كتب الله لنا الخلود والظهور ؟**

إن حياة الأمم أيها السادة الكرام بالرسالة والدعوة وأن الأمة التي لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة حياتها مصطنعة غير طبيعية ، وأنها كورقة انفصلت من شجرتها فلا يمكن أن تحيا بسقى وري ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) .

إننا أيها السادة أمة الحاضر وأمة المستقبل قد كتب لنا الخلود والنصر لأننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية وهي الرسالة الأبدية التي قضى الله بخلودها وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان المنقلب بشرط أن نقوم بدعوتنا ونستقل برسالتنا ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ودعوة في غيرنا من الأجنب في الدين .

*** تخلف الأمة عن الأمم المعاصرة :**

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبيعية والأسباب الحربية وفي الأخذ بأسباب الرقى المادى بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، إلا أن الأرنب كان ساهراً مع خفته وسرعته والسلحفاة نائمة

(١) سورة الرعد - الآية ١٧ .

رغم بطنها وثقلها ، ولو جارينا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قروناً ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فإذا فاق العدو وسبقنا بشعرة في القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته لأن المادة عمياء وهي من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحق والمبطل والشريف والوضيع .

* ما الذي يقهر المادة ؟

ولكن الدعوة والرسالة- وهي الروح التي تقهر المادة وتسخر الأسباب وتستنزل النصر - تأتي بخوارق ومعجزات وطالما قهرت القاهر وفتحت الفاتح ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضاحة في التاريخ .

مرة لما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلاد الرومية والفارسية في ثياب صفيقة مرقعة وفي نعال وضيعة مخصوفة يحملون سيوفاً بالية الأجفان رثة المحامل على خيل قصيرة متقطعة الغرز وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسالتهم حلاً فآخرة وأعواداً أسندت إلى الجدار لحرمانها من رسالة وقعودها عن

دعوة ، وكان الانتصار فى الأخيرة للرسالة على النظام وللروح على المادة وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية لما قهر التتار - ذلك الجراد المنتشر - العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه وخضدوا شوكة المسلمين فلم تقم لهم قائمة ولم يقف فى وجههم واقف وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عين واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة " إذا قيل لك أن التتار هُزموا فلا تصدق " هناك فعلت الدعوة الإسلامية فعلها ونفذت فيهم فإذا القاهر يصبح مقهوراً وإذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين وإذا التتار يلفظون بكلمة الإسلام ويدينون برسالة محمد ﷺ ويصبحون أمة إسلامية .

*** العالم بأسرة ينتظر رسل المسلمين :**

وأن الرسالة الإسلامية لتأتى بالمعجزات اليوم وتقهر الأمم - طوعاً لا كرهاً بسلطانها الروحى ونفوذها العجيب .
إن آباءكم أيها السادة المسلمون قد انتشروا فى عواصم الجاهلية الأولى ومراكزها الكبرى يقولون " الله إبتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا

إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأخبار والرهبان والملوك وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض والأمة الهندية من عبادة البقر إلى عبادة الله وحده وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، والعيون تنتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية يهتفون الله إبتعتنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده ومن ضيق عالم التنافس والأثرة وجشع المادة إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ونعيم الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام .

*** انحراف المسلمين عن المثل الكامل :**

لقد انحرفت حياة المسلمين - أيها السادة - ومدنيتهم عن مركزها ومثلها الكامل ولم تنزل الشقة تطول بينهما والخرق يتسع حتى أصبحت حياة مدنية لا تشبه أصلها إلا ببعض شعائر الإسلام الظاهرة في بلاد المسلمين ، وصعب

على المسلم اليوم أن يتمثل تلك الحياة الماضية فسافروا معي أيها السادة على صفحات التاريخ في المسافة الزمنية وارجعوا إلى عهد الرسالة المحمدية على صاحبها السلام والتحية وقفوا بنا في مدينة الرسول ﷺ ساعة نشاهد حياتها ونصورها لأبناء هذا العصر لعلمهم يدركون ما فاتهم .

هذه هي المستعمرة الإسلامية الأولى وهي مدينة بمعاني الكلمة ليست بزواوية من زوايا الشيوخ أو مدرسة من مدارس العلم أو مسجد فحسب ولكنها مدينة جامعة قد تمثلت فيها الحياة الإنسانية بجميع معانيها ونواحيها ، ففيها الأسواق وفيها المزارع وفيها البساتين وفيها الأسر والبيوت وفيها التاجر وفيها الفلاح وفيها الملاك وفيها من يأكل بعرق جبينه وكد يمينه .

* ماذا كان يفعل الصباغة إذا أسفر النهار؟

وهاهو ذا قد أسفر النهار والناس راجعون من المسجد النبوي في سكينة ووقار ولكن في خفة ونشاط ، وهنا دكان يفتح في السوق ، وهناك سكة تمشي في الحقل وهذا بستان من نخيل يسقى وذلك أجير يشتغل في حائط على أجرة يأخذها في المساء قد اندفعوا إلى أشغالهم بما سمعوا من فضيلة

كسب الحلال وعول العيال ولَبُوا مرضاة الله بالمال ، قفوا منهم بجنب وارقبوهم عن كذب ترونها خفاف الأيدي فى العمل ذلل اللسان بذكر الله ﷺ ، عامرى القلوب بالحسبة ، وطلب الأجر يحتسبون فى أشغالهم مالا يحتسب المصلى اليوم فى صلاته مقبلين بقلوبهم إلى الله ويقال بهم إلى شغلهم .

*** وماذا إذا أذن المؤذن ؟**

وها هو ذا قد أذن المؤذن فإذا بهم ينفضون أيديهم مما كانوا فيه كأن لم يكن لهم به عهد وكأنما نشطوا من عقال وخف إلى المسجد ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١) .

فإذا قد قضاوا صلاتهم انتشروا فى الأرض يبتغون من فضل الله ويذكرون الله وقد مالت الشمس إلى الغروب ، فرجعوا إلى بيوتهم وقابلوا أهلهم وجلسوا إليهم يتحدثون معهم ويلطفونهم ويؤنسونهما لما سمعوا بالأمس من فضائله وثوابه ، وناموا بعد صلاة العشاء وإذا بهم قائمون أمام ربهم فى الأسفار لهم دوى كدوى النحل وفى صدورهم أزيز كأزيز

(١) سورة النور - الآية ٣٧ .

المرجل ، وينصرفون بعد صلاة الصبح إلى أشغالهم فى نشاط الجندى وقوته كأن لم يتعبوا فى النهار ولم يسهروا فى الليل . أليست المدينة إذاً يا سادتى مسجداً واسعاً فهل رأيتم فيها غير عبادة ودين ؟ أو ليسوا عاكفين فى هذا المسجد الواسع طول النهار وطول الليل ؟ وهل دار الفلك على زاوية أعمر من هذه الزاوية - إن كان لابد من هذا المصطلح - وأكثر منها منقطعين إلى الله .. !!؟

*** مجالس الذكر والعلم :**

وانظروا إلى مجالس الذكر والعلم فى المسجد وقد ضمت صنوفاً وأنواعاً من الناس فهذا هو الفلاح الذى رأيناه فى النهار على حافة حقله ، وهذا هو الأجير الذى رأيناه ينزع الدلاء ويسقى النخيل فى بستان يهودى ، هذا هو التاجر الذى رأيناه فى سوق المدينة يبيع ، وهذا هو الصانع الذى وجدناه مشتغلاً بصناعته وليسوا الآن إلا طلبة علم ، وقد هجروا راحتهم - وهم فى حاجة إليها بعد شغل النهار - وتركوا أهلهم وهم فى حنين إليهم ، لأنهم سمعوا أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العالم رضا بما يصنع ^(١) ، ولأنهم سمعوا أن

(١) رواه أبو داود والترمذى ، انظر رياض الصالحين - باب العلم.

من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة^(١) ولأنهم سمعوا " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في ما عنده^(٢) وتراهم ساكتين كأن علي رؤوسهم الطير خاشعين كأن الوحي ينزل ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾^(٣) يتسابق العلم والخشوع فلا يدرى أيهما أسبق وتبتدر المعاني إلى القلوب والكلمات إلى الأذان فلا يدرى أيها أسرع .

ومن تفقدونه في هذا المسجد ممن عرفتموه في النهار فلأنه قد اتفق مع جاره على التناوب فيحضر يوماً ويغيب يوماً وهذا دور جاره ولكنه على اتصال بما يدور في هذا المسجد من حدث وخبر وحكم وآية بواسطة جاره .

*** حال القراء في الليل والنهار :**

(١) رواه مسلم - المرجع السابق .

(٢) رواه مسلم ، المرجع السابق - باب استحباب الاجتماع على القراءة .

(٣) سورة سبأ - الآية ٢٣ .

وهؤلاء هم القراء وقد انقطعوا إلى العلم فإذا جنهم الليل انطلقوا إلى معلم لهم بالمدينة فيدرسون الليل حتى يصبحوا فإذا أصبحوا فمن كانت له قوة استعذب من الماء وأصاب من الحطب ومن كانت عنده سعة اجتمعوا فاشترى الشاة وأصلحوها فيصبح ذلك معلقاً بحجر رسول الله ﷺ (١).

* المعرفة بالحلال والحرام :

وما من أحد في المدينة إلا ويعرف الحلال والحرام وما يتعلق بحياته وحرفته وصناعته وشغله من الأحكام ويحفظ من القرآن ما يقوم به في صلواته ، ثم هو مستمر في طلب العلم يزداد كل يوم فقها في الأحكام ورسوخاً في الدين وحرصاً على العمل وشوقاً إلى الآخرة ورغبة في الثواب وهذا هو العلم الذي يمتازون به وعلمهم بالفضائل أكثر من علمهم بالمسائل ، وبأصول الدين أكثر من علمهم بفروعه وبمحكماته أكثر منه بمتشابهاته ، " أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً " (٢).

* التبليغ :

(١) مسند الإمام أحمد .

(٢) من كلام عبد الله بن عمر ، انظر حياة الصحابة - ١ / ١٨ .

وإذا تعلم أحد منهم شيئاً من الدين أسرع إلى إخوانه يعلمهم لأنه سمع " ألا فليبلغ الشاهد الغائب .. قرب مبلغ أوعى من سامع .. (١) وسمعوا نبيهم يقول " إنما بعثت معلماً " (٢) وسمعوه يقول " لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطته على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها " (٣) وسمعوه يقول " إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير " (٤) .

وهكذا انقسم المسلمون في المدينة بين طالب ومعلم فإما طالب وإما معلم بل كل واحد منهم طالب ومعلم في وقت واحد يأخذ من مكان ويدفع إلى مكان .

* الحب .. التضحية .. الإيثار :

أقليست المدينة إذاً مدرسة واسعة عامرة بالطلبة والمعلمين وهل عرف التاريخ مدرسة أوسع وأعمر من هذه

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الدارمي ، انظر مشكاة المصابيح - كتاب العلم - ٨٦/١ .

(٣) متفق عليه ، رياض الصالحين - باب فضل العلم .

(٤) رواه الترمذي ، المرجع السابق .

المدرسة النبوية التى يتعلم فيها التاجر والفلاح والأجير والصانع والمحترف والمشغول والشاب الناهض والشيخ الفانى ، يتعلمون فيها بجميع مشاعرهم ، فالأذن تسمع والعين تبصر والقلب يشعر ويتأثر والعقل يفكر والجوارح تعمل ، يشاهدون المعانى فى صورها وأمثالها ، ولا يقرؤونها بلفظها فقط ، فإذا عرفوا الإيثار على النفس مثلاً عرفوه فى ضيافة أبى طلحة لضيوف رسول الله ﷺ وقد بات هو وأطفاله جوعاً ، وفى قصة الجرحى الذى آثروا إخوانهم على أنفسهم فى الماء فماتوا عطاشاً ، وإذا عرفوا حب رسول الله ﷺ عرفوه فى قصة خبيب ﷺ لما رفعوه على الخشبة نادوه يناشدونه أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال لا والله العظيم ما أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه فضحكوا منه ^(١) فعرفوا من معانى الإيثار والحب ما لا يعرفه أكبر لغوى وأديب وعالم علوم النفس .

*** وضع كل شئيبٍ في محله :**

عرفوا أحكام الاجتماع فى الاجتماع وأحكام الاختلاط فى الاختلاط وأحكام التجارة فى التجارة وأحكام المعاشرة فى المعاشرة ، فقدروا أن يحافظوا على دينهم ونياتهم وخشوعهم وذكورهم فى المجمع والمجالس وفى صخب الأسواق وفتنة البيوت وفى مجمع الشياطين ومقاعدهم ، فإذا خاضوا فى لجة الحياة واندفع بهم التيار لم يغلبوا على أمرهم ، شأن الذى يتعلم السباحة فى بحر متلاطم ونهر فياض فكانوا فى المسجد إذا خرجوا من المسجد ، وفى الصلاة إذا انصرفوا من الصلاة ، بررة القلوب ، صادقى الوعد ، سديدى القول فى المساجد والأسواق معاً ، وفى المعتكف والحانوت معاً ، وفى الحضر والسفر معاً ، ومع الصديق والعدو معاً .

*** ماذا لو نادى منادى الجهاد :**

حتى إذا نادى منادى الجهاد ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١) وهتف هاتف الجنة ﴿

(١) سورة التوبة - الآية ٤١ .

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ دارت حماليق وجوههم ورقصت
قلوبهم في صدورهم تحولت المدينة إلى ثكنة واسعة فما هي
بالتى رأيتموها وأصبح أهلها جنوداً متطوعة فما هم بالذين
عرفتموهم ، أقفل التاجر دكانه ، وترك الفلاح سكنه ، ورمى
الصانع آلاته وترك الأجير رشاء دلوه وخرجوا في سبيل الله لا
يلوون على شئ كأنهم كانوا من ذلك على ميعاد وفى ديارهم
وأهلهم على مسامحة ورخصة .

*** يسبحون في الأرض :**

وترونهم يتجولون فى البلاد ويسبحون فى الأرض
ويتغربون فى دين الله كأنهم خلقوا على ظهور الخيل وولدوا
على متون الإبل يعدون غدوة أو روحة فى سبيل الله ﷻ
أفضل من الدنيا وما فيها فيصلون النهار بالليل والشتاء
بالصيف حتى يحتاج إمامهم إلى تحديد اغترابهم بأربعة أشهر

(١) سورة آل عمران - الآية ١٣٣ .

(١) وهم أينما رحلوا ونزلوا مدارس سيارة ومساجد متنقلة وهكذا
نشروا الدين من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن شرقها إلى
غربها .

هذه مدينة رسول الله ﷺ على ساكنها ألف ألف سلام في
القرن الهجرى الأول ، وهكذا كان يجب أن يكون العالم

(١) إشارة إلى الخبر الذى أخرجه عبد الرازق فى مصنفه عن ابن جرير قال :
أخبرنى من أصدق أن عمر - رضى الله عنه - بينما هو يطوف سمع امرأة
تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقتى أن لا حبيب الأعبه
فلولا حذار الله لاشئ مثله لززع من هذا السرير جوانبه
فقال عمر - رضى الله عنه - : مالك ..؟ قالت : أغريت زوجى منذ أشهر وقد
اشتقت إليه . قال : أردت سوء . قالت : معاذ الله ! قال : فأملكى عليك نفسك ،
فإنما هو البريد إليه . فبعث إليه ، ثم دخل على حفصة - رضى الله عنها -
فقال : إنى سائلك عن أمرٍ قد أهمنى فأفرجيه عنى ، فى كم تشتاق المرأة إلى
زوجها ؟ فخفضت رأسها واستحيت . قال : فىئى الله لا يستحى من الحق .
فأشارت بيديها ثلاثة أشهر ، وإلا فأربعة أشهر . فكتب عمر - رضى الله عنه -
أن لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر . كذا فى الكنز (انظر حياة الصحابة -
٤٥٩/١) .

الإسلامي كله - إذا كان عالماً إسلامياً - فكما أن الرسول ﷺ إمام المسلمين بأجمعهم والأسوة العامة لجميع المسلمين في كل زمان ومكان كذلك مدينته إمام المدن الإسلامية والأسوة العامة في كل زمان فإن النبي ﷺ قد انتهج منهاجاً للحياة وهذه الحياة قد تمثلت في مدينته في عهده ويجب أن تتمثل في جميع البلدان الإسلامية في كل زمان .

*** كيف السبيل إلى عودة هذه الحياة :**

ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد انحرفت حياة المسلمين عن مركزها وكأنها رحي لا تزال تدور ولكن ليس حول قطبها ، فتسمع جعجة ولا ترى طحناً ، ولا يستقيم سيرها ولا ينتج عملها إلا إذا عادت إلى قطبها ، وذلك القطب هو كلمة الشهادة التي يدين بها كل مسلم فينبغي أن تتوغل أصولها وعروقها في أعماق القلب والذهن وفي أحشاء الحياة وتتمدد فروعها حتى تظل الحياة كلها فلا تخرج ناحية من نواحيها من سماوتها ، وذلك بتجديد العهد بها والتفكير في معانيها ومقتضياتها والتشبع بروحها وتحقيق مطالبها وأحكامها في الحياة .

*** الكلمة وتغيير منهاج الحياة :**

والكلمة تقتضى بالطبع تغييراً جوهرياً فى مبدأ الحياة وفى منهاج الحياة ، فأما فى مبدأ الحياة فهو معنى قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) وأما التغيير فى منهاج الحياة فهو نقلها من حياة المادة إلى حياة الإيمان والاحتساب أو بلفظ آخر نقلها من الحياة البشرية العامة إلى الحياة النبوية الخاصة .

*** وما الذى يساعد على التغيير ؟**

- الصلاة :

والذى يساعد فى هذا التغيير ويمهد له السبيل هو الصلاة التى هى الصورة المكبرة للكلمة والصورة المصغرة للحياة الإسلامية ، حياة الخضوع والانقياد لله ﷻ فهى تفصيل الكلمة وإيجاز الحياة ، وكأنها جسر منصوب بين الاعتقاد والحياة بين القلب والجسم ، لا يصل غيرها الإنسان من العقيدة إلى العمل .

- العلم :

(١) سورة الذاريات - الآية ٥٦ .

والذى يساعد فى تغيير منهاج الحياة وأساليبها ووضعها وينتقل بنا من الحياة المادية المحضة إلى حياة الإيمان والاحتساب ويحرض عليه هو العلم الذى يعرف به الإنسان الثواب والعقاب وفضائل الأعمال وصفة الجنة وما أعد الله لأهلها فيها من نعيم ، وأخبار الصحابة وسلف هذه الأمة التى تبعث فى الإنسان عاطفة العمل وتنفخ فيه روح النشاط ، وتهيج فيه الحنين إلى الجنة وذلك هو الروح الذى أتى بخوارق ومعجزات فى التاريخ البشرى وخلق بأن يعيدها فى هذا الزمان .

-الذكر:-

والذى يبعث الاستقامة على هذا المنهاج ويذلل الصعاب هو ذكر الله ﷻ وهو عبارة عن طرد الغفلة ومن طريقه التسبيحات والأذكار المأثورة عن النبى ﷺ ، فالمحافظة عليها بإيمان واحتساب تطرد الغفلة وتثير القلب وتغذى الروح .

- الدعوة والتبليغ :

ثم الانتقال من حياة اللزوم إلى حياة التعدية ومن الحياة الدينية الفردية إلى حياة الدعوة والرسالة الاجتماعية وهي الميزة التي تمتاز بها هذه الأمة بين الأمم كما قدمنا ، وتمرين الدين عمليا في ميادين الجهل والغفلة ومجتمعات الضلالة بالتواصي بالحق والدعوة إلى الدين وليكن ذلك مع مراعاة دقيقة للآداب الدينية ومع محافظة شديدة على احترام شخص المسلم مهما كان جاهلا وبعيدا عن الدين وتقدير إيمانه المستور في حجب الجهل والغفلة ومعرفة حقه وفضله وألا تنقلب هذه الحركة فتنة وهذا الإصلاح كفاحا ويكون ضرره أكبر من نفعه وكأني هنا بقائل يقول الكلام كله حسن معقول لا يختلف فيه اثنان ولكن ما هو الطريق ..؟! قد جربنا الإصلاح الديني مرارا فلم نفلح ، نشرنا في ذلك الكتب ووزعنا المطبوعات ، أسسنا لأجل ذلك جمعيات وأقينا في هذا الموضوع محاضرات ، فكان كل ذلك صيحة في وادٍ ونفخة في رماد ، لأن المسلمين غائصون في لجة الحياة إلى آذانهم ،

وماداموا مأسورين لأشغالهم ومحيطهم فإنك تضرب فى الحديد البارد .

- الخروج فى سبيل الله :

أقول نعم لا يمكن التغيير فى حياتهم إلا إذا أخرجناهم من هذه اللجة لوقت قليل وخلصناهم من سلطان الأشغال وسيطرة المحيط وتمكنت فىهم التعاليم الدينية ، ثم لا بأس أن يرجعوا إلى لجة الحياة ويعودوا إلى أشغالهم فإنهم يؤمن عليهم الغرق .

- مثلاً عملياً لعودة الحياة بعد ذوابها :

وأنا أضرب لكم أيها السادة لذلك مثلاً عملياً ، رقعة ذات مساحة واسعة فى جنوب دهلى تقطنها أربعة ملايين من المسلمين وقد أسلموا فى زمن قديم ولكن كان إسلامهم سطحياً فلم يتأثروا بالإسلام كثيراً ولم تنقطع صلتهم بحياتهم الجاهلية الأولى وبقيت فىهم أو تسربت فىهم من جيرانهم الكفار شعائر الجاهلية ، أسماء غير إسلامية ، أعمال وثنية ، أخلاق همجية ، وعادات وتقاليد هندكية ، يطوف كثير منهم حول الصنم ويقربون له القرابين ويقدمون روث البقر

ويخشون آلهة القبائل ويحتفلون بأعياد المشركين ، وقد نسي كثير منهم كلمة الإسلام وطال عهدهم بالصلاة حتى نسوا شكلها فإذا رأوا أحداً يصلى كادوا يكونون عليه لبدا ويرمونه بالجنون أو الخبل ، والمساجد فى أرضهم نادرة جداً ، وأما العلم الدينى فقد كان فى هذه القطعة كالكبريت الأحمر .

وقد أصبحوا ببعدهم عن الدين وتعاليمه والانحطاط فى الخلق والإيمان فى الجهالة والأمية مثلاً فى الأدب الهندى لسوء الأخلاق ورمزاً للصوصية والإغارة وقد أتعبوا حكومة دهلى فى عهد دولة المماليك حتى ألقوها إلى غزوهم فى بلادهم وكبح جماحهم وقطعت لذلك بعوثاً ، وأخيراً أرسلت جيشاً كثيفاً أوغل فى بلادهم وخضد شوكتهم فاستراح أهل دهلى من غارتهم إلا أنهم لم يتركوا اللصوصية وقتل النفوس وسرقة السائمة .

بقيت هذه الرقعة الواسعة من أرض الهند وهى من العاصمة الإسلامية والمركز الثقافى على طرف التمام وبقيت هذه الأمة الموهوبة النجيبة القوية مهجورة قروناً طويلاً لا ترغب حكومة فى تعليمها وتنقيفها ولا يعتنى مصلح دينى

بتقويم عوجهم حتى كان العقد الثاني من القرن العشرين المسيحي فاشربأب الارتداد فى الأمم التى انتقلت من الوثنية إلا الإسلام قبل قرون وخشى أهل النظر على أهل ميوات الارتداد أيضاً .

*** الشيخ ألباس وفكرة فى الإسلام :**

هنالك قيض الله ﷺ للإسلام رجالاً من عبادة المخلصين والعلماء العاملين وهو مولانا محمد إلباس الكاندهلوى الدهلوى (١) (١٣٠٣هـ - ١٣٦٣هـ) فطاف فى هذه القطعة من أقصبيها إلى أقصبيها وأوغل فى أوديتها وسهولها وجبالها وتحمل فى ذلك مشاق السفر والجوع والسهر وتعرض للخطر إيماناً واحتساباً وجهاداً فى سبيل الدين وشاهد ما عليه الناس من جهالة وغفلة عن الدين فلم ير بدأ من نشر الدين فى هذه الأمة الأمية وتأسيس المدارس والمكاتب لذلك .

*** تأسيس المدارس والكتاتب :**

(١) الشيخ إلباس : محيى التبليغ والدعوة فى بعوث جماعية بالهند وينتهى نسبه إلى أسرة سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه .

حث الشيخ أهل البلاد على تأسيس المدارس الدينية وكانت له معهم أوامر دينية قديمة لأن كثيراً منهم كانوا قد بايعوا ^(١) أباه الشيخ محمد إسماعيل (١٣١٥ هـ) وكثير منهم قد قرعوا على أخيه الشيخ محمد (١٣٣٦ هـ) وكثير منهم بايعوه ، وألح عليهم في ذلك فلم ير فيهم رغبة وإقبالاً عليه ورأى منهم إحجاماً وفراراً ، ولم يزل يفتل في غاريهم حتى تمكن من تأسيس عدة مكاتب بعد جهد طويل وسؤال ملح ، وتولى نفقاتها وتكاليفها .

تأسست المكاتب وجرت مجريها الطبيعي ولكن تأسف الشيخ جداً لما رأى أن أهل ميوات لا يتعاونون على ذلك ، وحتى الناس لا يسمحون لأولادهم بالتعلم فيها ويعدون ذلك ضياعاً للعمر ، لأنهم لا يعرفون قيمة العلم والدين ولا

(١) كان النبي ﷺ يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفروا وربما بايعهم على الموت وبايعهم على الجهاد كما بايعهم على الإسلام وبايعهم على الهجرة قبل الفتح وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله وبايع نفرًا من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً (زاد المعاد - ٢ / ١١٢)

يعدونها حاجة من حاجاتهم ، فأصبحت المدارس الدينية فى بلادهم كالتصلية الأجنبية فى بلاد لا دخل لها فى حياة البلاد ولا رغبة للأمة فى شئونها وإنما تلجأ إليها فى بعض الأحوال . ورأى أن هذه المدارس كجزيرة فى بحر الظلمات يحيط بها الماء من أربعة جوانب ، فالذين يتعلمون فيها لا يخرجون من سلطان البيئة ونفوذ المجتمع وإذا خرجوا منها ودخلوا فى معترك الحياة وهى ثائرة على الدين أضاعوا علمهم وضاعت فيهم تلك الجهود التى صرفت فى تعليمهم وتربيتهم الدينية وضاعت فيهم تلك الأموال التى أنفقت عليهم طول المدة .

فعرف بعد هذا الاختبار أن الجهود التعليمية لا تثمر ولا تنتج مادام المحيط ثائراً عليها مزاحماً لها وأن المدارس والمكاتب والإصلاح لا يؤثر إذا لم تكن للأمة رغبة عامة والتماس للدين وشعور بنقصها الدينى وأن المتخرجين منها لا يؤثر فى الحياة ولا يقدر أن يحافظوا على دينهم وخلقهم ماداموا فى الأمة وفى أسرهم ومجتمعهم كالأجانب والغرباء .

ثم رأى أن الذين يتلقون العلم فى المدارس هم عدد قليل جداً يعدون على الأصابع وأن هذا العدد القليل لا يقتنع به فى إصلاح أمة .

*** الفرق بين المعلمين والمرسلين :**

وأن هذه المدارس إنما تنقل العلم إلى أفراد - والأمة على حالها - ولكن تحتاج إلى مشروع ينقل الأمة فضلاً عن الأفراد إلى الدين والعلم ، وذلك هو الفرق بين المعلمين والمرسلين ، فإن المعلمين إنما ينقلون العلم إلى الأفراد والأنبياء ينقلون الأمم إلى غايات العلم ولبابه ، وأن المشاريع التعليمية تقسم العلم بين الأمة قسمة ضيزى ، فتجتمع كميات كبيرة من العلم عند أفراد ويبقى سائر الناس كالهجم الرعاء فلو قسم هذا العلم على الأمة لوسعهم ، وإنها كالربا يصبح به أفراد من الناس أصحاب ثروات كبيرة وسائر الناس لا يجدون كفافاً .

ثم رأى أن الذين قد خرجوا من سن الدراسة والتعليم وتقدم بهم العمر لا ينتفعون بهذه المدارس ولا يفسح وقتهم للتعلم فيها ، فلا بد إذاً من دعوة عامة إلى تعليم الدين بطريقة وجيزة

سهلة طبيعية لا تشق عليهم ولا تطول وتشمل جميع طبقات الأمة .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد استولت الحياة الدنيوية وتكاليفها على ابن القرن العشرين أخذت بمجامع القلوب وأسرت الروح وغلت الأيدي وصفدت الأقدام فأصبح الإنسان فى القرية والمدينة رهين بطنه ، أسير شغله ، جليس بيته أو حانوته أو وظيفته وماتت فى الناس العاطفة الدينية ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .

* فِرَاسَة إِيْمَانِيَّة :

اهتدى الشيخ بفراسته الإيمانية ونظره الثاقب وبمجاهدة فى سبيل الدين لقول الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) ويدرسته العميقة النادرة لأصول الدين إلى مركز العلة فى جسم هذه الحياة وهو الاستغناء فى أمر الدين والإخلاق إلى الحياة فضرب على الوتر الحساس ودعا الناس

(١) سورة العنكبوت - الآية ٦٩ .

فى ميوات ^(١) أولاً وفى المدن الهندية آخراً إلى تفرغ أوقاتهم أربعين يوماً أو أربعة أشهر مثلاً ، للدين وانقطاع إلى تعلمه لمدة قصيرة فكانت دعوة غريبة طارئه ولكن الشيخ لم يفشل ولم يئس واستمر فى دعوته ودعائه حتى لبي الناس دعوته وخرجت عصابات إلى مراكز العلم والدين وعليها أمير منهم يرأسهم ومعلم يعلمهم مبادئ الدين وأحكامه والقرآن وقصص الصحابة وأخبار جهادهم وجهدهم فى سبيل الدين وحبهم للرسول ﷺ ، واستهانتهم بهذه الحياة وحنينهم للآخرة وتوقهم إلى الجنة وإيثارهم على النفس وزهدهم فى الدنيا ومسارعتهم فى سبيل الخير وخشيتهم لله تعالى إلى غير ذلك مما يحرك الساكن من قلوبهم وينير الكامن من عواطفهم ويذرف الجامد من عيونهم ويشعل فيهم الحياة الإسلامية .

ثم يخرجون فى أوقات مناسبة فيطوفون فى القرى ويمرون على البيوت ويحدثون الناس فى أمكنتهم ويغشونهم

(١) هى منطقة هندية وهى أول منطقة تم فيها إحياء الدعوة .

فى أنديتهم فيجلسون إليهم ويحرضونهم على الإقبال على الدين ويفهمونهم الغرض الذى خلقوا لأجله والغاية التى بعثوا لها ، وأنهم لم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سدى ويرهبونهم من النار ويشوقونهم إلى الجنة ويرغبونهم فى تعلم الدين والمبادرة إلى ذلك ويخوفونهم من التسويف والمماطلة ويدعونهم إلى مركزهم الذى قد أقاموا فيه ليكلموهم فى تفصيل ذلك كله فى لطف ورفق ولين واحترام لإيمان المخاطب وتقدير لإسلامه فى غير ازدراء ولا فظاظة وهم يعضون الطرف عن الحرام ويلهجون بالذكر أثناء الكلام .

وهكذا يقضون أوقاتهم فى طلب العلم والدين وفى العبادة والجهد للدين وفى الاختلاط بجماهير الأمة والاتصال بها فى سبيل الدين تحت نظام محكم متقن لا يتسرب فيه الفساد ولا تتطرق إليه الفتن ، لأن حول العاملين والمتطوعين حصناً حصيناً من الذكر والدعاء وحارساً من إكرام المسلمين والتدلل لهم كافة والتجنب عن كل مالا يعينهم فى الدين والدنيا .

*** النتيجة والثمره :**

وكان لذلك نفع ملموس قد تجلى فى ناحيتين :

الأولى : أن المتطوعين الذين قضوا قسطاً صالحاً من أوقاتهم تغيروا في أنفسهم ، عرفوا مبادئ الدين وأحكامه الأولية واستيقظت فيهم العاطفة الدينية وهبت عليهم نفحة من نفحات الحياة الإسلامية .

وقد رأينا طلائع هذه الحياة وآيات النهضة الدينية في ميوات فرأينا تغيراً مشاهداً في المعتقد والأعمال والأخلاق ، رأينا مدارس تشيد ومساجد تبنى وتعمر وجنابات تقل وتندر ، وفتناً تضمحل ، وبدعاً تموت ، وتقاليد جاهلية ترتفع ، ودعوات دينية وتعليمية تثمر وتزدهر ، ونفوساً جامحة تلين وقلوباً جانية ترق وعيوناً تذرف ، وهمماً تعلوا في سبيل الدين وإجلالاً لأهل العلم والدين وخضوعاً للحق مما لو جاهد الإنسان الواحد منها بالاستقلال لاستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً .

ورأينا كذلك في أوساط المتصلين بهذه الدعوة والحركة والمتطوعين لها من الناشئة الجديدة والطبقة المثقفة والموظفين والتجار آثار الانقلاب الديني ، رأينا وحشة عن الدين تزول وتتبدل بالأنس ، وتنافراً بين طبقتي المتدينين

والمتمدينين أو المتتورين - كما يسمون أنفسهم - يرتفع وإجلالاً لشعائر الإسلام وتعظيمها يحل محل الاستهزاء والسخرية منها ، ورغبة في تعلم الدين ومعرفة أحكامه تشتد وتلح إلى غير ذلك مما يمتازون به عن أقرانهم وأترابهم وزملائهم .

الثانية : أن الجماهير من المسلمين لم يزلوا يبتعدون عن الدين بالتدريج حتى أصبحوا في وادٍ والدين في وادٍ وتشاغل عنهم العلماء وأصحاب الإصلاح والتعليم حتى انفصلوا عنهم في كل شئ وأصبح هؤلاء أمة وأولئك أمة ، تختلف الأولى عن الثانية في العادات واللباس ومظاهر الحياة واللغات واللهجات ، وأصبح هؤلاء العامة بجهلهم فريسة لكل صائد وأتباع كل ناعق تنهشهم سباع المادية وتغير عليهم لصوص الدين ، وأخيراً فشت فيهم دعوة الشيوعية ووجدت أنصارها في عامة المسلمين مرتعاً خصباً ، ولكننا نتوقع أن هذه الدعوة الدينية والحركة الصحيحة والاتصال بالجماهير والطبقات المنحطة في العلم والدين والمعاش مباشرة وبذل النصح لها

يصد هذا التيار إن شاء الله ﷻ ويكون سداً منيعاً فى وجه الحركات اللادينية .

عرفنا كذلك أنه لا يزدهر مشروع إصلاحى أو تكميلى إلا بالدعوة الدينية الأولى عن طريق التحريض والدعاية لا على طريق النظام والسياسة فى البداية ، فالحياة المدنية فى الإسلام مبنية دائماً على أساس الحياة المكية ، وكل مؤسسة لا تقوم على أساس الدعوة والتحريض الدينى ولا تسبقها جهود فى تمهيد الأرض ، إلى انهيار فى العاجل أو الآجل ، اقتنعنا بهذه المبادئ وجربناها فى بلاد بعيدة عن مركز الإسلام ، فى أرض وعرة قد أهملت منذ زمن طويل فرأينا الغراس يثمر والجهد القليل يأتى بحاصل كبير .

* وقتلنا :

وها نحن وقد تلقيناها منهم فليتقوها اليوم من إخوانهم ويقولوا " بضاعتنا أولاء نتحف إخواننا المسلمين فى البلاد الإسلامية عامة وفى الأقطار العربية خاصة بهذه الدعوة

الدينية ومبادئها ردت إلينا " (١) ويجربوها فى تربتهم الزكية
الندية وفى أممهم النجبية الزكية بجهودهم المتواصلة القوية
ويشاهدوا سنة الله الأبدية فى نصر الأمة المحمدية وخوارق
الدعوة الإسلامية (٢) .



الفهرس

رقمها

الصفحة

- (١) أى أن العرب هم الذين حملوا بضاعة الإسلام إلى العجم ثم هاهم
العجم المهتمون بالرسالة يردون الجميل إلى أحفاد العرب .
- (٢) محاضرة ألقاها الشيخ أبو الحسن الندوي فى إحدى اجتماعات التبليغ والدعوة ،
عام ١٣٦٦ هـ .

٣	المقدمة
٥	الدعوة من البداية إلى النهاية
٥	حال العالم قبل ظهور الأمة المحمدية
٦	ظهور الأمة المحمدية
٦	هل بعثت الأمة للزراعة ؟
٧	وهل بعثت الأمة للتجارة ؟
٧	وهل بعثت الأمة للصناعة ؟
٧	وهل بعثت الأمة لتنضم إلى الحكومات
٥	وهل بعثت للتوسع في الشبهوات والملذات ؟
٨	وهل تريد ملكا ؟
١٠	بعثت لغرض سام جدا
١١	في أي مكان ظهرت هذه الأمة ؟
١١	مجابهة قريش لها .
١٣	غزوة بدر وبيان مهمة الأمة
١٤	شرط بقاء الأمة ؟
١٥	ربيعي بن عامر رضي الله عنه يبين لرستم مقصد بعثة الأمة
١٦	عتاب الله لمن تلاكأ عن المهمة

١٩	حال الأمة اليوم
١٩	حجة ظاهرة علي المسلمين
٢٠	لماذا كتب الله لنا الخلود والظهور ؟
٢١	تخلف الأمة عن الأمم المعاصرة
٢٢	ما الذي يقهر المادة ؟
٢٣	العالم بأسره ينتظر رسل المسلمين
٢٤	انحراف المسلمين عن المثل الكامل
٢٥	ماذا كان يفعل صاحبة إذا أسفر النهار ؟
٢٦	ماذا إذا أذن المؤذن ؟
٢٧	مجالس الذكر والعلم
٢٩	حال القراء
٢٩	معرفة الحلال والحرام
٣٠	التبليغ
٣٠	الحب .. التضحية .. الإيثار
٣٢	وضع كل شيء في محله
٣٢	ماذا لو نادي مناد للجهاد ؟
٣٣	يسيحون في الأرض
٣٥	كيف السبيل إلى عودة هذه الحياة

٣٦	الكلمة وتغيير منهاج الحياة
٣٦	وما الذي يساعد علي التغيير ؟
٣٦	- الصلاة
٣٦	- العلم
٣٧	- الذكر
٣٨	- الدعوة والتبليغ
٣٩	- الخروج في سبيل الله
٣٩	- مثلا عمليلا لعودة الحياة بعد زهابها
٤١	الشيخ ألياس وفكرة في الإصلاح
٤٢	تأسيس المدارس والكتاتيب
٤٤	الفرق بين المعلمين والمرسلين
٤٥	فراصة إيمانية
٤٨	النتيجة و الثمرة
٥١	وختاما
٥٢	الفهرس